موقف عبد الرزاق قسوم من إشكالية الأصالة و المعاصرة
في الفكر العربي المعاصر

أ/ أسماء بلهادي
جامعة الجزائر2

تمهيـد

إن الدارس للفلسفة العربية المعاصرة سيلاحظ غيابا شبه تام للفكر الجزائري وأعلامه، فحصة الأسد لما يدرّس و يتدارس فيها هي من نصيب المشارقة المصريين منهم على وجه الخصوص و المغاربة(المغرب الأقصى) حتى ليساورنا انطباع لا يحمل على الرضى بأن هؤلاء هم وحدهم ممثلوا الفكر العربي المعاصر دون سواهم. و كأن الجزائر لم تنجب مفكرين تهمّهم هم كذلك قضايا الأمة المصيرية. بلى هناك مفكرون جزائريون لهم إسهاماتهم في إطار الفكر العربي الإسلامي عامة و الجزائري خاصة نأخذ منهم عبد الرزاق قسوم الذي له أعماله القيمة التي تحتاج هي الأخرى إلى تدارس من قبل الآخرين لتحضى هي الأخرى بالمكانة نفسها التي حضي بها أعلام من أقطار عربية أخرى.لذلك نضع بين أيدي القارئ الكريم هذه الدراسة التي تناقش جزءا من فكر المفكر الجزائري المرموق و هي دراسة تتناول موقفه من إشكالية الأصالة و المعاصرة حسب ما جاء في العنوان.

مقدمــة

فرضت قضية الأصالة والمعاصرة، التراث والتجديد، القديم والجديد، الإبداع والإتباع... نفسها بقوة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر و هو القرن الذي اعتبر منعطفا حاسما في تاريخ الشعوب العربية الإسلامية في إطار التحولات التي أفرزتها صدمة الحداثة في مختلف جوانب الوجود التاريخي العربي الإسلامي، تلك الصدمة التي كشفت عن تخلف تاريخي عميق للفكر والواقع العربيين الإسلاميين بالمقارنة مع ما وصل إليه الأخر الغربي من تقدم علمي و تقني و ما افرزه حضوره القوي من إعادة طرح لأسئلة الهوية والتاريخ والمصير.

إن مجمل النقاشات التي دارت حول هذه الإشكالية قد أفرزت مواقف متباينة بتباين القناعات والخلفيات الإيديولوجية لأصحابها، وكإجراء منهجي تم تصنيف كل هذه القناعات لإدراجها ضمن تيارات أو توجهات محددة لا تخرج عن احد القناعات الثلاث:

- إما دعوة لإحياء تراث الأجداد و الأسلاف و التحذير من قيم الأخر الغربي.
- وإما دعوة للقطيعة مع التراث و دعوة للانفتاح الثقافي على الأخر واقتباس فكره ومناهجه.
- أو محاولة للتوفيق بين الاختيارين السابقين وهي محاولة مضطرة في النهاية لتنحاز إلى احد الموقفين السابقين.

تصنيف الفكر القسّومي و مبرّراته.

السؤال المطروح الآن : أين نصنّف الفكر القسّومي ؟

في رأينا إن الفكر القسومي يجد مكانه الطبيعي ضمن التيار الإصلاحي السلفي وذلك لعدة اعتبارات و مبررات نوجزها فيما يلي:

أولا : طبيعة الفكر القسومي كما تظهر من خلال مقالاته و كتبه، فهذه الأعمال يربطها هاجس واحد هو التصدي للغزو الثقافي الغربي من خلال تطعيم الذات المسلمة وتحصينها بالقيم الأخلاقية الإسلامية و هذا التطعيم وهذا التحصين ينبغي في نظر عبد الرزاق قسوم أن يصاحب النشء منذ الصغر لذلك انتقد مفكرنا المدرسة الجزائرية والإصلاح الذي يزعمه القائمون عليها كما يظهر ذلك في مقال له بعنوان : "**المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح**" إذ يقول:"**أولى متطلبات الإصلاح التربوي الحقيقي لتجاوز الإصلاح المزيف هي أن نعيد غرس القيم الوطنية والأخلاقية والدينية في نفوس أبنائنا منذ بداية تمدرسهم فنعمق فيهم الاعتزاز بالذات ...ففي ذلك تحصين لهم من الغزو الفكري و الثقافي و الأيديولوجي و تلك هي القاعدة الصلبة التي يجب أن ينطلق منها كل إصلاح صحيح.**"([1])

إن موقفه هذا يعكس لديه قناعة أساسية بخصوص علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، فعبد الرزاق قسوم و كأنه يسلّم بأن بناء الفرد المسلم يكفي في حد ذاته لإصلاح المجتمع

[1]- قسوم عبد الرزاق ،المدرسة الجزائرية :من الإصلاح إلى إصلاح الإصلاح، مقال منشور على الموقع الالكتروني :echoroukonline.com

والخروج به من أزمات التخلف والاستغلال والتبعية التي يتخبط فيها، و كأن هذا المجتمع ما هو إلا تجميع آلي لمجموعة من الأفراد متى تمّت تربيتهم أخلاقيا و دينيا فسوف يكون ذلك كافيا ، يعتقد قسوم، لاستقرار و أمن هذا المجتمع.

إن هذه القناعة، في اعتقادنا، تصطدم بالواقع الفعلي، فالمجتمع ليس مجرّد مجموع أفراده بل هو حقيقة قائمة بذاتها تتجاوز نطاق الأفراد المكوننين لها فالمجتمع له قوانينه و مطالبه ومقتضياته الخاصة التي تزيد عن كونها حاصل جمع آلي للأفراد المكونين له، مما يستوجب وضع برنامج مدروس يواجه به المجتمع كل التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهه. هذا من جهة .أما من ناحية أخرى فحتى لو افترضنا أننا قد نجحنا في تحصين ذوات الأفراد أخلاقيا و دينيا فأن الفرد المسلم هو في النهاية بشر و ليس ملاك لقوله تعالى: " **و خلق الإنسان ضعيفا**"([1]). فما الضامن الذي يضمن أن أخلاقه لازالت على الصراط المستقيم؟. هذا بالإضافة إلى طبيعة الجيل الحالي المنفتح على العولمة و الفايسبوك والذي أصبحت تتشكل لديه بنية فكرية و رؤية إلى الواقع والحياة تختلف نوعا ما عن جيل الأستاذ قسوم مما يستوجب النظر في طبيعة التحولات و مدى عمقها.

ثانيا:علاقة عبد الرزاق قسوم بجمعية العلماء المسلمين: عبد الرزاق قسوم هو حاليا رئيس الجمعية و ملتزم بمبادئها و ثوابتها كما نص عليها المؤسسون الأوائل .هذه الثوابت يلخصها شعار الجمعية "الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا" و يحدد قسوم بدقة ثوابت الجمعية و قناعاتها في مقال له بعنوان" **و يسألونك عن السلفية و ما قد سلف** "و بعدما يعرف السلفية بقوله :" **هي رمزية الانتماء و نموذجية الاقتداء أي اقتداء المسلم الصالح ممن خلف بالرمز العالم العامل ممن سلف**" ([2]) قلنا بعد ما يضع قسوم هذا التعريف لينتقد به السلفيين الغلاة المتعصبين الذين شوهوا ونكبوا بالسلفية يقول:" **السلفية بمفهومها الصافي التقي ذات التوجه السني الوسطي المعتدل المستمدة من الفهم الصحيح للكتاب والسنة تستقبلها الجمعية بالأحضان وستحميها بالقلب والعقل واللسان**"([3]).

تستوقفنا في هذا التعريف قضية هامة نجدها قد أثارت العديد من الجدل تتعلق بالفهم الصحيح للكتاب و السنة و بما أن الأستاذ قسوم يشير إلى أن جمعية العلماء المسلمين تملك

---

[1]- قرآن كريم، سورة النساء، الاية28

[2]- قسوم عبد الرزاق، و يسألونك عن السلفية و ما قد سلف، مقال منشور على الموقع الالكتروني: assala_dz.net

[3]- المصدر نفسه.

الفهم الصحيح للكتاب و السنة و هي تحتضن السلفيين الذين لهم فهم صحيح للكتاب و السنة فان السؤال المطروح هو ما هو معيار الفهم الصحيح للكتاب و السنة ؟ خصوصا إذا علمنا أن الصراع حول هذه القضية لا يطال العلمانيين ضد السلفيين فقط و إنما حتى السلفيين أنفسهم ينقد بعضهم بعضا و كل منهم يدعي لنفسه انه يملك الفهم الصحيح للكتاب و السنة.

ثالثا:"كتاب مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر : تأملات في المنطلق و المصب".

يشتمل هذا الكتاب على 283 صفحة تتضمن مقدمة و أربعة أبواب و خاتمة.

يعالج الباب الأول منه المسألة المنهجية الخاصة بالفكر العربي الإسلامي و مصادر هذا الفكر و مراحله و أهم المدارس الممثلة له والمختلفة في منطلقاتها و مصباتها و هي ثلاث أساسية :

1-مدرسة المنطلق العقلي و المصب الديني

2-مدرسة المنطلق الديني و المصب العقلي

3-مدرسة المنطلق العقلي و المصب اللاديني

و يُخصّص عبد الرزاق قسوم الأبواب الثلاثة المتبقية لتحليل بعض أعمال أبرز الرّواد الذين اختارهم كنماذج لهذه المدارس الثلاث.

من خلال قراءتنا المتواضعة لمحتوى الكتاب قمنا بتسجيل النقاط الآتية :

- على الرغم من أن الأستاذ قسوم يشيد بالعقل و العقلانية إلا أنه يضع سقفا محددا لدور العقل لذلك يرفض المبدأ القائل "لا سلطة تعلوا فوق سلطة العقل "من ثم فأن موقف الأستاذ قسوم من أولوية العقل أم النقل هو موقف واضح إذ أنه يسبق النقل الذي يعلو و لا يعلى عليه.

- نلاحظ من خلال الفقرات التي يقابل فيها الأستاذ قسوم الفلسفة بالفكر عموما أنه و على الرغم من كونه أستاذ فلسفة إلا أنه يُهوّن من قيمة الفلسفة ، يظهر ذلك في محاولته إبطال المقولة التي تزعم" **إن الفلسفة تمثل الفكر الإنساني في أعلى مستوياته**"([1]).

يقول :" مهما سلمنا بجانب من هذه المقولة في الإعلاء من قيمة التأمل الفلسفي إلا أننا نسمح لأنفسنا بأن نبطلها من أساسها لأنها تحمل عوامل تهافتها فيها " لينتهي إلى الإقرار

[1]- قسوم عبد الرزاق ،مدارس الفكر العربي الإسلامي،ص8

بان " **الفكر اعم من الفلسفة**"[1] و طبعا هذا أمر وارد فالفكر بالفعل له إطلالات معرفية واسعة تشمل الفن و الدين و الاقتصاد و الطبيعة ...الخ إلا أنه يمكن القول و التأكيد على إن الفلسفة و إن كانت جزءا من الفكر فان موضوعها هو الفكر في النهاية و أن أغنى ما يميزها عن غيرها هي روحها النقدية الاستفزازية الأمر الذي يجعل منها حقا أعلى تمظهرات الفكر بما هو كذلك.

– يحملنا ما سبق للحديث عن لغة و أسلوب الأستاذ قسوم في التّعبير عن أفكاره و التي هي لغة اقرب إلى الأدب منها إلى الفلسفة إذ نجدها لا تخلو من السجع الذي يجعلها تقرا بنغمة موسيقية.هذا من جهة أما الذي لاحظناه من جهة أخرى هو حرس مفكرنا و إلزام نفسه بان يظل وفيا للمفردات العربية الأصيلة إلى درجة أنه ينفر من توظيف الكلمات المعربة و المترجمة عن لغة أخرى و يفضل انتقاء كلمات عربية أصيلة تكون اقدر من غيرها على حمل ما يريده أن تحمله من معنى و كمثال على ذلك نسجل تعليقه على المصطلحات التي وظفها فهمي جدعان في توصيفه لمراحل التطور الفكري و الحضاري الإسلامي .و التي هي ، في رأيه ، أربع مراحل هي :

– مرحلة التنوير الديني

– مرحلة التوقف الحضاري

– مرحلة اختلال التوازن و الانحطاط

– مرحلة اليقظة و النهوض.

يعلّق عبد الرزاق قسوم، كما ذكرنا، على هذا التقسيم و على المصطلحات الموظفة فيه فيسجل أولى الملاحظات فيقول :"**إن أولى الملاحظات على هذا التقسيم ...يتمثل في استخدام المصطلح الغربي لتصحيح مفهوم عربي إسلامي...و ما مصطلح التنوير الديني، و التوقف الحضاري، والانحطاط و النهوض إلا أمثلة للمصطلح التغريبي الذي يحس المرء مدى نشازه في تعامله مع الفكر العربي الإسلامي**"([2]) و يقترح قسوم بدل تلك المصطلحات أخرى بديلة و أكثر أصالة من الأولى، فيقترح كلمة الفتح بدل التنوير والتفاعل الحضاري و بناء الدولة الإسلامية بدل مصطلح بناء الحضارة .

---

[1]- قسوم عبد الرزاق ، مدارس الفكر العربي الإسلامي ،ص9

[2]- المصدر نفسه ،ص31-32

إن هذا الالتزام بالمصطلح العربي الأصيل يجعلنا ، في رأي قسوم " **أوفياء أكثر لمفاهيمنا ...و اقرب لما اتفق عليه بعض الفتح الإسلامي ليكون المصطلح ذا دلالة أكثر عمقا** "([1]).

إن هذا الموقف القسومي من اختيار الألفاظ التي تعبر عن مواقفنا يجعلنا نستشعر حساسيته تجاه ما هو غربي هجين غير أن السؤال الذي يفرض نفسه في هذه الحالة هو: ما السبيل الذي يجعل اللغة العربية تغتني بالألفاظ و المصطلحات الجديدة إذا كنا ننفر من الألفاظ المعربة و المترجمة بحجة أنها لا تحمل المضمون الغني كما تحمله اللفظة العربية الأصيلة ؟

– ما شد انتباهنا في هذا الكتاب هو أنه ساورنا انطباع قوي بمدى تعاطف الأستاذ قسوم مع مدرسة المنطلق العقلي و المصب الديني في المقابل نجده يطلق أحكاما قاسية نوعا ما على أقطاب مدرسة المنطلق العقلي و المصب اللاديني(محمد أركون، فؤاد زكرياء، هشام جعيط) أي العلماني خصوصا عندما وصفهم جميعهم بأنهم "**يتغذون من ثدي فكري واحد هو ثدي الحليب الغربي الأحمر بدماء ضحايانا و يستلهمون منهجهم من العقل الغربي الملوث بسموم عدائه لكل ما هو عربي إسلامي**"([2]).

إن في هذه الفقرة إيحاء واضح لاعتبار هؤلاء أعداء الأمة ماداموا متأثرين بعدو الأمة "الغرب" و كما تقول القاعدة الرياضية:" صديق عدو الأمة هو عدوها".

– على الرغم من عدم انخراط الجمعية في العملية السياسية و التزامها بالفعل الدعوي الإصلاحي إلا انه يمكن الكشف عن توجهها السياسي من خلال ما ورد في الكتاب المذكور لرئيسها الأستاذ عبد الرزاق قسوم ففي معرض حديثه عن التيار الإصلاحي التغييري الثوري الذي يعتبر جهوده ،أي جهود التيار المذكور ، **تتويجا لعملية التطور الذي بدأه تيار الجامعة الإسلامية بقيادة جمال الدين الأفغاني**([3]) نجده يدرج تحت راية هذا التيار كل من جماعة الإخوان المسلمين وجناح الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وجناح جمعية العلماء المسلمين. وهذا التيار بأجنحته المنضوية تحته له أهداف يلخصها عبد الرزاق قسوم في النقاط الآتية :

---

[1]- قسوم عبد الرزاق ، مدارس الفكر العربي الإسلامي، ص32

[2]- المصدر نفسه، ص156

[3]- انظر المصدر نفسه، ص27-28

- القيام بعملية التنظير الإسلامي للمجتمع.
- تجسيد شعار التكاملية بين الإسلام و الوطنية و القومية.
- الدفاع عن الخلافة الإسلامية.
- رفع شعار الحاكمية لله في مقابل الديمقراطية الوافدة([1]).

الخاتمـــة

كانت هذه أهم الملاحظات النقدية التي استوقفتنا و نحن نحاول تصنيف الفكر القسومي و الذي تبيّن أنه يجد مكانه ضمن التيار الإصلاحي السلفي المهموم بقضايا الأمة و الغيور على ثوابتها و مظاهر أصالتها التي أصبحت مهددة في الصميم في وقتنا الراهن خصوصا مع تقاعس و تخلف الذات العربية الإسلامية التي أصبحت مستهدفة و مستباحة أمام جبروت الآخر الغربي و غطرسته.

إن المفكر الجزائري عبد الرزاق قسوم و على الرغم مما سجلناه من تساؤلات و انتقادات هو مفكر أصيل يجتهد لأداء واجبه كمسلم يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر يربي الأجيال على الأخلاق الإسلامية و قيمها و هو كذلك يجتهد ليؤدي رسالته باعتباره أستاذا و باعتاره مسؤولا عن إدارة جمعية عريقة اسمها مكتوب في سجل التراث الثقافي الجزائري العريق ألا و هي جمعية العلماء المسلمين .يبقى أن نضيف أنه إذا كان الأستاذ قسوم في إحدى مداخلاته قد قال :"**أنا أؤمن إذن أنا موجود**"([2]) فإننا نضيف إلى الكوجيتو القسومي تحويرا آخر فنقول :"أنا أفكر إذن أنا مسلم" والإسلام يكافئ على الاجتهاد حتى وان كان خطأ كما يكافئ على الصواب.

[1]- قسوم عبد الرزاق، مدارس الفكر العربي الإسلامي، ص29
[2]- قسوم عبد الرزاق، إشكالية النهوض في امتنا، مقال منشور في مجلة مشكلات الحضارة، العدد01 السنة2013"عدد خاص"، ص11

قائمة المصادر

1- قسوم عبد الرزاق، مدارس الفكر العربي الإسلامي، تأملات في المنطلق والمصب، الطبعة الأولى،(الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع،1418هج-1998م).

2- قسوم عبد الرزاق، المدرسة الجزائرية: من الإصلاح إلى أصلاح الاصطلاح، مقال منشور على الموقع الالكتروني:echoroukonline.com

3- قسوم عبد الرزاق ،و يسألونك عن السلفية و ما قد سلف ، مقال منشور على الموقع الالكتروني:assala_dz.net

4- قسوم عبد الرزاق، إشكالية النهوض في امتنا، مقال منشور في مجلة مشكلات الحضارة، العدد01 السنة2013"عدد خاص".